المحاضرة الثامنة

المدرسة التجريدية

التجريدية عملية تكشف عن النظام العام أو القانون الخفي الكامن وراء الظواهر، مما يجعل قيمتها واضحة للمُتلقي الواعي. يعتمد التجريد على التأمل (فكريًا أو روحيًا) لفهم الظاهرة واستخلاص قواعد تُسهم في إدراك الظواهر المشابهة، عبر التركيز على الصفات الجوهرية المشتركة. يرتبط التجريد بالتطور، الذي يعني النمو أو التغير المستمر في السمات الأساسية، سواء على مستوى الفرد (كمسيرة فنانٍ يسعى لتحقيق رؤيته الفنية) أو على مستوى التاريخ الإنساني الجماعي.
يشمل التجريد أيضًا تجربة مستمرة من الحذف والتصحيح، حيث تُبنى كل مرحلة على الخبرات السابقة، مما يؤدي إلى كشف متتالٍ أكثر دقة. فكل اكتشافٍ فردي يُعتبر نقطة انطلاقٍ لتجريد أعمق، في عملية تراكمية تنتقل عبر الأزمنة (من لحظات محددة إلى عصور كاملة)، يعيد فيها كل جيل صياغة المفاهيم السابقة ويطورها. وهكذا، يصبح التجريد سُلَّمًا تطوريًا يعكس تراكم المعرفة والإدراك البشري عبر التاريخ.

الفن التجريدي

الفن التجريدي يُعتبر ذروة التعبير عن الفردية في الإبداع الفني، حيث يبتعد عن النمطية التي ميزت المدارس الفنية القديمة والحديثة. ففي السابق، اعتمدت الطرز الفنية (سواء التقليدية التي استمرت قرونًا أو المدارس الحديثة التي سادت لعقود) على وحدة الأسلوب والمنطق الفني المشترك بين مجموعة من الفنانين. لكن التجريدية كسرت هذا الإطار، لتصبح فنًّا لا يُحصر في أسلوبٍ واحد أو منطقٍ ثابت، بل يتسم بتنوع لا نهائي في الأساليب والتقنيات، مما يعكس حرية الفنان المطلقة في التعبير خارج القيود الجماعية أو المدرسة الفنية الموحدة.
الفن التجريدي (أو اللاصوري/اللاموضوعي) هو تيار فني ظهر مطلع القرن العشرين، وازدهر بين الحربين العالميتين، ووصل ذروته في الخمسينيات، ليكون سمةً بارزةً للفن الحديث. يتميز بعدم نقله للطبيعة حرفياً، ورفضه التمثيل الصوري أو التقيد بالمنظور التقليدي، مع تركيزه على "الفن لذات الفن" كهدفٍ جوهري.

أبرز أفكاره:

1. التجريد كمفهوم عام:

- ليس مرتبطاً بمدرسة أو جماعة محددة، بل هو اتجاهٌ فني واسع يعكس تغير الرؤية الفنية وتبدل الظروف الاجتماعية.

- يُعتبر التجريد سمةً أساسية في الفن عمومًا، حيث يُعبِّر العمل الفني عن المشاعر والعواطف والرموز (كما عند سوزان لانجر)، مما يجعله تجريدًا بطبيعته.

2. الفن التجريدي كحركة فنية محددة:

- بدأ كتيارٍ منظم مع نشر فاسيلي كاندنسكي لكراسه الفلسفي عام ١٩١١، الذي وضع أسس التجريدية.
- ارتبط بتيارات فنية مثل التكعيبية، الوحوشية، الدادائية، المستقبلية الإيطالية، التشكيلية الجديدة (موندريان)، البنائية الروسية، والتفوقية (ماليفيتش).
- تطور بعد الحرب العالمية الثانية عبر حركات مثل كوبرا، الفن الحركي، والفن البصري.

3. جوهر التجريدية:

- رفض المحاكاة: ابتعد عن تمثيل الواقع المادي، واتجه نحو استخراج "الحقيقة" أو "الفكرة" الكامنة خلف الأشياء.
- التحرر من القيود: تحرر الفنان من ضرورة نقل الأشياء بشكلٍ مُتعارَف عليه، واستبدلها بإشارات ورموز تعبِّر عن المبادئ المجردة.
- التطور التاريخي: نتج عن تراكم محاولات فنية بدأت مع (الانطباعية)، ثم تفرعت إلى مدارس متنوعة، جمع بينها البحث عن أشكال تعبيرية غير تقليدية.

4. التمييز بين التجريدية والفن التجريدي:

- التجريدية في الفن: نزعة فطرية في كل الأعمال الفنية، كونها تعبيرًا رمزيًا عن المشاعر.
- الفن التجريدي: حركة فنية محددة زمنياً وفكرياً، ارتبطت بفنانين ومدارس سعت إلى قطع الصلة مع التصوير التقليدي.

يظل الفن التجريدي ثمرةً لثورة فكرية وفنية ضد التقاليد البصرية، يعكس سعي الإنسان الدائم لإعادة صياغة الواقع عبر رؤيةٍ ذاتيةٍ خالصة.

بدايات التجريدية مع كاندنسكي:

- يُعتبر فاسيلي كاندنسكي رائد الفن التجريدي، خاصة بعد نشر كتابه "الروحانية في الفن" عام ١٩١٠، الذي ركز على التأثير النفسي للون وعلاقة الشكل بالمشاعر.

قسّم إنتاجه الفني (١٩١٠–١٩١٤) إلى ثلاث مراحل:

1. الإنطباعات: تعكس مشاهد طبيعية (مثل لوحات جبال الألب).
2. الارتجالات: أعمال عفوية لا تعتمد على الطبيعة، تعبِّر عن اللاشعوري.
3. التكوينات: أعمال مُخططة بناءً على دراسات نظرية، تجسد التجريد المُحسوب.

انقسام التجريدية إلى اتجاهين رئيسيين:

1. التجريدية الغنائية (العاطفية):
- تزعَّمها (كاندنسكي)، وركزت على التعبير عن المشاعر الداخلية عبر اللون والشكل المجرد.
- اعتقد كاندنسكي أن الفن يجب أن يكون كالموسيقى، قادرًا على نقل "الروحاني" عبر رموز لونية وخطية، مُحررًا من الواقع المادي.
- تأثر بالفن الشعبي الروسي والأيقونات الدينية، مما أعطى أعماله طابعًا صوفيًا.

2. التجريدية الهندسية (العقلانية):
- تزعَّمها بيت موندريان، واتسمت بالصرامة الهندسية (خطوط مستقيمة، زوايا قائمة، ألوان أساسية).
- رفضت العاطفة والحسيّة، وهدفت إلى تجسيد "الهارمونيا الكونية" عبر البناء الرياضي المجرد.

اتجاهات الرسم التجريدي المعاصر:

1. جماعة الفارس الأزرق (Blue Rider):
- تأسست في ألمانيا، وضمت فنانين تعبيريين مثل كاندنسكي، ركزت على التحرر من الشكل التقليدي.

2. جماعة الأسلوب (De Stijl):
- هولندية بقيادة موندريان، تبنت التجريد الهندسي كوسيلة لخلق فن عالمي.

3. جماعة الأولية التجريدية (Elementarism):
- تطوير لـ(De Stijl)، جمعت بين الهندسة والديناميكية.

4. التفوقية (Suprematism):
- روسية بقيادة (ماليفيتش)، اعتمدت على الأشكال الهندسية البسيطة (مثل المربع الأسود).

5. التجريدية الحركية:
- ركزت على الحركة والإيقاع البصري (مثل أعمال "جاكسون بولوك").
- تميزت بتكرار الأشكال المتحركة وتجسيد الطاقة الديناميكية.

6. التجريدية الطبيعية:
- استلهمت من الطبيعة والفنون البدائية وفن الأطفال.
- تميزت بالتجريب الفردي، كما في أعمال (بول كلي وبيكاسو).

أبرز الفنانين التجريديين

1. فاسيلي كاندنسكي (Wassily Kandinsky) (1866–1944)

- جنسيته/خلفيته: فنان روسي، بدأ تعبيريًا ثم تحول إلى التجريد.

- التطور الفني:

- انتقل من الواقعية إلى التجريد، معتقدًا أن الفن البعيد عن محاكاة الطبيعة أقدر على التعبير عن "الحقائق الباطنية".

- تأثر بالموسيقى، ورأى أن اللون والشكل المجردين قادران على نقل المشاعر الروحية.

-إسهاماته:

- كتابه "الروحانية في الفن" (1910) يدرس التأثير النفسي للون.

- بحث "مشكلة الشكل" (نُشر في كتاب مجموعة "الفارس الأزرق").

- الفترة بين 1910–1914 كانت الأغزر في إنتاجه، حيث مزج بين التعبيرية والتجريد.

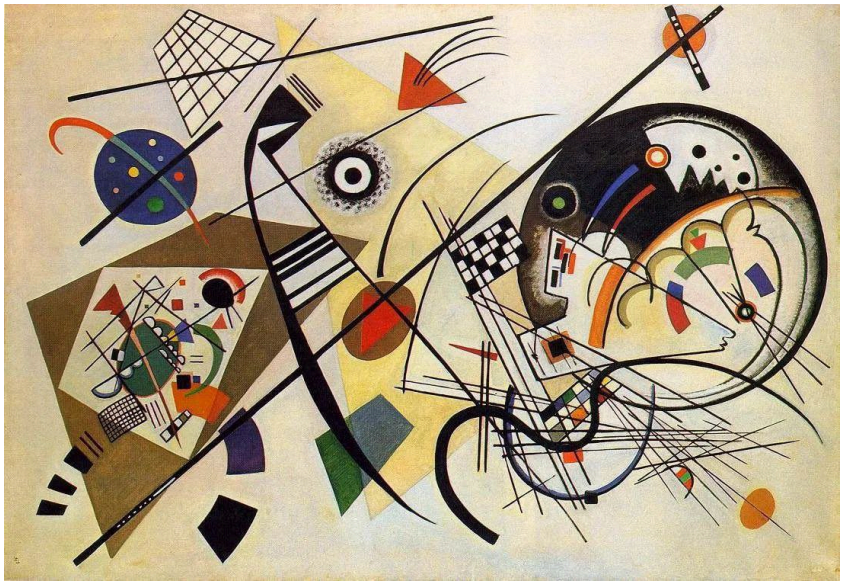

(لوحة تكوين للفنان فاسيلي كاندنسكي)

2. بيت موندريان (Piet Mondrian) (1872–1944)

- جنسيته/خلفيته: فنان هولندي، بدأ أكاديميًا وتأثر بالتكعيبية قبل توجهه للتجريد.

- التطور الفني:

- ابتكر أسلوبًا يعتمد على الخطوط العمودية والأفقية والألوان الأساسية (أحمر، أزرق، أصفر).

- تخلى عن أي إشارة إلى الطبيعة عام 1914، معتقدًا أن الأشكال الهندسية المجردة تعكس "حقائق نقية ثابتة".

- إسهاماته:

- رائد التجريدية الهندسية مع لوحات مثل "التكوينات التجريدية" التي تعتمد على التضاد اللوني.

- هاجر إلى أمريكا وأصبح رمزًا للفن الحديث هناك.

3. بول كلي (Paul Klee) (1879–1940)

- جنسيته/خلفيته: رسام ألماني-سويسري، انضم لحركة "الفارس الأزرق" (1911)، ودرّس في مدرسة الباوهاوس.

- التطور الفني:

- جمع بين الفطرة الطفلية و(التجريب الفني)، مستخدمًا رموز الفنون البدائية.

- لوحاته مزيج من الخطوط، الرموز، والألوان، تتسم بالغرابة والمفاجأة البصرية.

- إسهاماته:

- لم يتبع منهجًا تقليديًا، بل اعتبر أن الأشكال "تنظم نفسها" داخل العمل الفني.

- زيارته لتونس (1914) أثرت في استخدامه الجريء للألوان.

- أعماله تجسد (التجريدية الطبيعية)، مستمدةً من الطبيعة والفن الشعبي.

-سمات أسلوبية:

- كاندنسكي: رائد التجريد الغنائي، ركّز على الروحانيات والعواطف عبر اللون.

- موندريان: رمز التجريد الهندسي، بحث عن الجوهر الكوني عبر الأشكال الرياضية.

- بول كلي: جمع بين التجريد والرمزية، مع تركيز على العفوية والتجريب.

- هؤلاء الفنانون أسسوا اتجاهات متنوعة داخل الفن التجريدي، من الروحانية إلى العقلانية الصارمة، مما جعل التجريدية مرآةً لثورة الفن الحديث ضد التقاليد البصرية.